بلاغة العرب

كليلة ودمنة

للدكتور محمد صبري

البيان فى لغة العرب، يجرى فى منازلها وأساليبها جرْى الماء فى فروع الدوحة .. ومنذا الذى لايحب ظل الدوح وثمره المتهدل الذى يملأ اليد والعين والقلب ؟ ومنذا الذى لا يحس طراوة العيش وبهجة الدنيا فى نواحيها ؟ ومنذا الذى لا يحركه السحر الذى يتبرج فى كل لون نضير ؟

إن لكل لفظة ولكل أسلوب لوناً ولكل لون فتنة ، وقد جمع أسلوب ابن المقفع بين الجزالة والسلاسة ؛ وكانت كل لفظة منه تنحت من خير مقطع ، ومن عجب أن هذه الألفاظ والتراكيب السهلة الممتنعة كان ينظمها ابن المقفع فيخدعك صفاؤها وانسجام نغمها وموسيقاها عما تكبده من تعب وجهد

وأسلوب ابن المقفع فى الكتابة كأسلوب البحترى فى الشعر: فى كل منهما تتجلى روعة الفن والصقل والذوق

قال الطائر فنزة إلى الملك فى كليلة ودمنة: «...أنا الفريدَ الوحيد الغريب الطريد قد تزودت عندكم من الحزن عبئاً ثقيلاً لا يحمله منى أحد . وأنا ذاهب فعليك منى السلام » وقال البحترى :

وقفة فى العقيق أطرح ثقلاً من دموعى بوقفة فى العقيق

وقال :

أعاتب الخل فيما جاء واحدةً ثم السلام عليه لا أعاتبه

هذا نثر منظوم وذاك شعر منثور ينتظمهما نفس واحد وموسيقى واحدة تتحد مع المعنى ... الأول يطول نغمه ويمتد كموج البحر لأنه يدلل على ثقل العبء الذى يؤوده ... « قد تزودت عندكم من الحزن عبئاً ثقيلاً » والثانى يقصر نغمه ويطرد لأنه يدلل على طرح الحمل ... « وقفة فى العقيق أطرح ثقلاً »

وإنى أجتزئ اليوم بهذه المقارنة وأقول : إنه يخيل إلى أن ابن المقفع كان محزون النفس لأن وتر الحزن فى كتابته يرن بين آونة وأخرى كلما ذكرت الصداقة وكلما ذكر الوطن ...

كانت الصداقة عنده كما كانت عند إسماعيل صبرى ظلاً يأوى إليه كلما كثر النهار ...

جاء فى باب الحمامة : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين .. فحدثنى إن رأيت عن إخوان الصفاء ، كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ... » . وجاء فيه أن المطوقة نادت الجرذ باسمه : « فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة . فأقبل إليها الجرذ يسعى »

« أنا خليلتك المطوقة » ... أظن كثيرين من القراء يعرفون قصص (لافونتين)... ويذكرون باب (المطوقتين الراحلتين) وسؤال إحداها للأخرى: «هل عند خليلتى الكفافُ من الرزق والمأوى؟»

وجاء أيضاً فى باب الحمامة المطوقة : « إنه لا شىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان ، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم » . وقالت السلحفاة ترغب الظبى فى الإقامة معها وصحبتها : « نحن نبذل لك ودنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا » . ثم قالت : « لا عيش مع فراق الأحبة ، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤادَه وخرم سروره وغشى بصره »

والأمثلة كثيرة فى مقدور كل قارئ أن يهتدى إليها ، والآن أنتقل إلى الوطن والوطنية ، وأرجو أن تقف قليلاً على باب (البوم والغربان) فإن فيه بلاغة وفيه دروساً نافعة

تتلخص هذه القصة فى أن ملك البوم أغار فى أصحابه على الغربان فقتل وسبى منها خلقاً كثيراً ، وكانت الغارة ليلاً ، فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى مَلِكها وأخذت تتشاور معه فى الأمر، فنصح اثنان منهما بالهرب فقال الملك: « لا أرى لكما ذلك رأياً ، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا فيه ولا ينبغى لنا ذلك، ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا

وتذكى نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه ولا مقصرين عنه، وتلق أطرافنا أطراف العدو ونتحرز بحصوننا وندافع عدونا بالأنامل مرة وبالجلاد أخرى حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا ، وقد ثنينا عدونا عنا »

أبى ملك الغربان أن يستسلم للعدو المغير وأن يخلى له وطنه ودياره وأبى إلا أن يقاتل وأن « تلق أطرافنا أطراف العدو ... »

وأفتى الثالث بالصلح مع العدو « على خراج نؤديه إليه فى كل سنة ندفع به عن أنفسنا ونطمئن فى أوطاننا ... » أو بعبارة أخرى كان يرى فى البقاء فى الوطن فى ظل الاستعباد بعض الطمأنينة ، وقد رد الرابع أنه لا يرى هـذا الصلح رأياً « بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغُربة وشدة المعيشة خير من أن نضيِّع أحسابنا ونخضع للعدو الذى نحن أشرف منه مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلا بالشطط . ويقال فى الأمثال : قارب عدوك بعض المقاربة لتنال حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك ويضعف جندك وتذل نفسك . ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة فى الشمس ... إذا أملتها قليلاً زاد ظلها وإذا جاوزت بها الحد فى إمالتها نقص الظل ... وليس عدونا راضياً منا بالدون فى المقاربة ، فالرأى لنا ولك المحاربة ... »

قال الملك الخامس : ما تقول أنت ؟ وماذا ترى ؟ القتال أم الصلح ؟ أم الجلاء عن الوطن ؟ . . .

قال : أما القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه وقد كان هذا الأخير أرجحهم عقلاً لأنه خشى مغبة قتال القوى ومقاربته كل المقاربة والجلاء عن الوطن ... ورأى أن يصيب أبناء جنسه حاجتهم من البوم بالرفق والحيلة قال : « وإنى أريد من الملك أن ينقرنى على رؤوس الأشهاد وينتف ريشى وذنبى ، ثم يطرحنى فى أصل هذه الشجرة ويرتحل الملك وجنوده إلى مكان كذا فأرجو أنى أصبر وأطلع على أحوالهم ومواضيع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتى إليكم لنهجم عليهم وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى »

انطلت على البوم حيلة الغراب وأنست له حتى إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة فأتى أصحابه وقال لهم : « إن البوم بمكان كذا فى جبل كثير الحطب . وفى ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راع . ونحن معذبون هناك ناراً ونلقيها فى أثقاب البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضرباً بأجنحتنا حتى تضطرم النار فى الحطب فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه . ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات ... »

لقد أرسل الله إلى البوم من يهلكها ويبيدها ، لأنها ظلمت القرى والعباد ، وإنى لأتمثل الغربان وهن يتراوحن على النار ضرباً بأجنحتهن حتى تضطرم فى الحطب ... تلك أجنحة ملائكة ... ملائكة الرحمة والانتقام ...

ويعجبنى فى هذه القصة حكاية الصفرد الذى طالت غيبته عن مكانه فجاءت أرنب فسكنته فلما عاد الصفرد تنازعا وقررا أن يحتكما إلى سنور متعبد بساحل البحر « يصوم النهار ويقوم الليل كله... » ما كادا يسألانه أن يقضى بينهما ويقصان عليه قصتهما حتى قال :

« قد بلغنى الكبر وثقلت أذناى فادنوا منى فأسمعانى ما تقولان » فدنوا منه وأعادا عليه القصة وسألاه الحكم . فقال :

« قد فهمت ما قلتما وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما فأنا آمركما بتقوى الله وألا تطلبا إلا الحق فإن طالب الحق هو الذى يفلج وإن قضى عليه ... » قال صاحب كليلة ودمنة :

« ثم إن السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه حتى أنسا إليه وأقبلا عليه ودنوا منه ثم وثب عليهما فقتلهما »

تلك عاقبة المتنازعين الذين يحتكمون إلى القوى فيخدعهم برياء قوته وجبروته ناسين « أن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن . فإنما مثل الحقد فى القلب إذا لم يجد محركا مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطباً فليس ينفك الحقد متطلعاً إلى العلل كما تبتغى النار الحطب فإذا وجد علة استعر استعار النار » (باب الملك والطائر فنزة)

أنظر إلى كلمة « المكنون » التى يصف بها الجمر وكلمة « متطلعاً » التى يصف بها الحقد وكلمة « تبتغى » فى قوله « كما تبتغى النار الحطب »

هل رأيت أبلغ منها فى مثل هذه المواطن ؟

ثم انظر إلى قوله فى الحقد :

« فإذا وجد علة استعر استعار النار » تر من جمال التعبير ما يرقص له البيان . فإن الكلام كان يمشى وئيداً ثم اندفع كالنار فى الجملة الأخيرة، وكذلك كان الشأن فى قصة المطوقة :

« فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت أنا خليلتك المطوقة ، فأقبل إليها الجرذ يسعى » فإن هذه الكلمات القصيرة المتتابعة « فأقبل ، إليها ، الجرذ ، يسعى » تنم عن الحركة السريعة المطمئنة وتؤدى المعنى خير أداء ، وإن من البيان لسحرا

محمد صبرى